قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي

المحاضرة السادسة : أهم المنتجات الحرفية والصناعية في الغرب الإسلامي

مقدمة:

لا يمكن قياس التطور الاقتصادي لأي حضارة بالاعتماد على وفرة مواردها الطبيعية والمعدنية فحسب، بل يُقاس بقدرتها التكنولوجية والتنظيمية على تحويل هذه الموارد إلى "قيمة مضافة .(Value Addition) "لقد تجاوز الغرب الإسلامي (الأندلس وبلاد المغرب) مرحلة الاقتصاد الزراعي-الرعوي البسيط، ليؤسس لـ **"اقتصاد حضري صناعي "**معقد، جعل من مدنه (كقرطبة، ألمرية، فاس، وتلمسان) ورشات إنتاجية كبرى تُصدر منتجاتها إلى قارات العالم القديم الثلاث.

إن دراسة "المنتجات الحرفية والصناعية" في مستوى الماستر تتطلب تفكيك البنية التحتية لهذا القطاع؛ فنحن أمام صناعات خفيفة تلبي حاجات الاستهلاك اليومي (كالنسيج والخزف)، وصناعات ثقيلة واستراتيجية ترعاها الدولة لتحقيق سيادتها (كصناعة السفن والأسلحة وورق الكاغد)، وصناعات فاخرة موجهة للتصدير الدبلوماسي والتجاري.

الإشكالية المركزية للمحاضرة:

ما هي الخريطة الإنتاجية لأهم الصناعات والحرف في الغرب الإسلامي؟ وكيف استطاعت الدولة والمجتمع تنظيم هذا القطاع (عبر مؤسسات كطوائف الحرف ونظام الحسبة) لضمان الجودة ومنع الاحتكار؟ وإلى أي حد ساهمت هذه المنتجات في تحقيق الاكتفاء الذاتي واختراق الأسواق الأوروبية والمتوسطية؟

المحور الأول: الصناعات النسيجية (العمود الفقري للاقتصاد الوسيط)

لا يمكن دراسة التاريخ الاقتصادي للغرب الإسلامي دون التوقف مطولاً عند "الصناعات النسيجية .(Textile Industry) "فقد مثلت هذه الصناعة في العصر الوسيط ما تمثله صناعة التكنولوجيا أو السيارات في الاقتصاد المعاصر؛ إذ كانت المشغل الأكبر لليد العاملة (من زراع المادة الخام، إلى الغزالين، فالنساجين، فالصباغين)، وشكلت منتجاتها أهم صادرات الأندلس وبلاد المغرب نحو الأسواق الأوروبية والمشرقية.

وقد اتسم هذا القطاع بتنوع هائل، انقسم جيواقتصادياً ومجتمعياً إلى صناعات سيادية فاخرة، وصناعات استهلاكية جماهيرية:

.1صناعة الحرير (صناعة الرفاهية والسيادةLuxury and Sovereignty -):

في البدايات، كان الغرب الإسلامي يستورد الحرير من الشرق (الصين وفارس). لكن سرعان ما حدثت "ثورة زراعية-صناعية" تمثلت في إدخال زراعة "شجر التوت" وتربية "دودة القز (Sericulture) "بكثافة إلى الأندلس، وخاصة في جبال البُشرات (Alpujarras)وغرناطة، مما حقق الاكتفاء الذاتي ثم التصدير.

- **ألمرية (العاصمة الصناعية للحرير) :**بلغت صناعة الحرير ذروتها في مدينة "ألمرية" خلال عصر الطوائف (تحت حكم المعتصم بن صمادح). تحولت المدينة إلى مجمع صناعي عملاق.
  - **النص المصدر :**يقدم الشريف الإدريسي إحصائية مذهلة تعكس حجم الاستثمار الصناعي وحجم العمالة في هذه المدينة، قائلاً:

"وكان بألمرية في أيام المعتصم بن صمادح... ثمانمائة طراز [ورشة] تُنسج فيها الحُلل الموشاة، والعمائم، والجلابيب، وألفُ نول لنسج الديباج، والسقلاطون، والأصبهاني، والجرجاني، والستور المكللة، والثياب المعينة" (1).

- **مؤسسة "دار الطراز :(The Institution of Tiraz)** "لم يُترك إنتاج الحرير الفاخر بالكامل للسوق الحرة، بل أنشأت الدولة مؤسسة سيادية تُدعى "دار الطراز". وهي مصانع حكومية ملحقة بالقصور السلطانية (في قرطبة، ثم لاحقاً في فاس ومراكش)، مهمتها نسج الثياب الفاخرة الموشاة بالذهب والفضة، والتي يُطرز على حوافها اسم الخليفة أو السلطان.
  - **التحليل المؤسساتي :**لم تكن هذه الثياب للبيع، بل كانت **"**هدايا دبلوماسية**"** (خِلَع) تُمنح للوزراء وكبار القادة، وتُرسل لملوك أوروبا كدليل على التفوق الحضاري. يصف العلامة **ابن خلدون** البعد السياسي والسيادي لهذه المؤسسة مؤكداً أنها من شارات المُلك:

"ومن خطط الملك وسلطانه، الطراز... فكانت دور الملوك قبل الإسلام وفي الإسلام، تشتمل على قصور لنسج حُللهم، يُعدون فيها الصناع لذلك... ويُجعل على تلك الدور ناظر يسمونه (صاحب الطراز) ينظر في أمور صناعها وآلاتهم، وإجراء أرزاقهم").2(

.2صناعة الصوف والكتان والقطن (صناعات الاستهلاك الجماهيري):

بينما كان الحرير حكراً على النخب، شكلت الألياف الأخرى أساس لباس العامة وعماد التجارة اليومية:

- **أ- صناعة الصوف :(The Wool Industry)** كانت بلاد المغرب (نظراً لطبيعتها الرعوية البدوية) هي المُمول الأكبر والصانع الأمهر للمنتجات الصوفية. تركزت هذه الصناعة في حواضر مثل **تلمسان**، و**فاس**، و**بجاية**.
  - **المنتجات والتصدير :**تخصصت هذه المدن في نسج الأكسية الثقيلة، والبرانس، والزرابي (السجاد). وكانت تُصدر عبر القوافل إلى قلب الصحراء الكبرى لحماية أهلها من برد الليل، كما تُصدر إلى الأندلس والممالك المسيحية.

- **النص المصدر :**يصف الجغرافي والرحالة **ابن حوقل** جودة الصوف المغاربي ومهارة صُناعه في إنتاج الأكسية التي كانت تُضاهي صناعات المشرق:

"وبها [أي بلاد المغرب] من الأكسية الرفيعة، والفرش، والمقاعد، والتكك الدقيقة، ما يضاهي السقلاطون في ثمنه... ولها من الصوف ما يفضل على صوف أرمينية جودةً ونعمةً وصبغاً" (3.(

- **ب- صناعة القطن والكتان:**

- **القطن :(Cotton)** المسلمون هم من أدخلوا القطن إلى أوروبا عبر الأندلس. تركزت زراعته وصناعته في حوض الوادي الكبير (وخاصة إشبيلية). واستُخدم في صناعة الثياب الخفيفة الصيفية للعامة. يذكر المقري أن قطن إشبيلية كان يُضرب به المثل في البياض والنعومة (4.(
- **الكتان :(Linen)** تركزت صناعته في مدن محددة مثل **شاطبة** (Xàtiva) وإلبيرة.
- **الترابط الصناعي :(Industrial Linkage)** يجب لفت انتباه الطالب إلى أن الكتان لم يكن مهماً للملابس فقط، بل كان عصب صناعتين استراتيجيتين أخريين:

1. **صناعة السفن :**كانت خيوط الكتان القوية تُستخدم في صناعة أشرعة الأساطيل البحرية الإسلامية.
2. **صناعة الورق :**كانت خرق الكتان البالية (Rags) هي المادة الخام الأساسية التي تُعجن لتصنيع الورق (الكاغد) الأندلسي الفاخر في شاطبة.

3.الخلاصة :

يُظهر قطاع النسيج في الغرب الإسلامي تطوراً هيكلياً يُعرف في الاقتصاد الحديث بـ **"التكامل العمودي" (Vertical Integration)**. لقد نجحت الدولة والمجتمع في السيطرة على سلسلة التوريد بأكملها: من إدخال زراعات جديدة (التوت والقطن)، مروراً بابتكار آلات النسيج وإتقان الكيمياء المطبقة (استخراج الألوان النباتية والصخرية للصباغة كالنيلة والزعفران)، وصولاً إلى التسويق التجاري في موانئ المتوسط. هذا التعقيد هو الذي جعل نسيج الأندلس والمغرب يسيطر على الأسواق العالمية طيلة العصور الوسطى.

الهوامش :

(1)الشريف الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ج 2 (بيروت: عالم الكتب، 1989)، 562. (ملاحظة: الشقلاطون والديباج هي أنواع من الحرير الفاخر الموشى بالذهب، والجرجاني والأصبهاني أسماء أُطلقت تيمناً بمدن المشرق إثباتاً لقدرة الأندلس على منافسة ومحاكاة النسيج المشرقي).

(2)عبد الرحمن بن خلدون، *المقدمة*، تحقيق عبد السلام الشدادي، ج 2 (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005)، 53-54.

(3)أبو القاسم محمد بن حوقل، *صورة الأرض* (بيروت: دار صادر، 1938)، 97. (ابن حوقل كان تاجراً وجاسوساً، وملاحظاته الاقتصادية حول جودة السلع تعتبر دقيقة جداً مقارنة بغيره من الجغرافيين).

(4)أحمد بن محمد المقري التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس، ج 1 (بيروت: دار صادر، 1968)، 140-141.

(5)إفاريست ليفي بروفنسال، *تاريخ إسبانيا الإسلامية: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية*، ترجمة علي عبد الرؤوف وعلي محمد سالم، ط 3، ج 3 (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000)، 222-224.

المحور الثاني: الصناعات الاستراتيجية والمعرفية (السفن، السلاح، والورق)

إذا كانت الصناعات النسيجية تمثل "العصب التجاري" لاقتصاد الغرب الإسلامي، فإن الصناعات التي سنعالجها في هذا المحور تمثل **"الدرع الجيوسياسي والقوة الناعمة "** للدولة. لم تُترك هذه الصناعات الثقيلة والمعرفية لتقلبات السوق الحرة، بل خضعت لرعاية واحتكار مباشرين من السلطة المركزية، نظراً لارتباطها العضوي بالأمن القومي وتسيير دواليب الإدارة.

.1صناعة السفن وإنشاء الأساطيل (مؤسسة "دار الصناعة"):

بحكم الموقع الجغرافي للغرب الإسلامي (شبه جزيرة وسواحل ممتدة)، كان السيطرة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي مسألة حياة أو موت. لذلك، أسست الدول (الأموية، ثم المرابطية والموحدية) ترسانات بحرية ضخمة عُرفت بـ **"دور الصناعة "** (Arsenal).

- **التوطين الجغرافي للترسانات :**اختيرت مواقع دور الصناعة بعناية فائقة بالقرب من مصادر الأخشاب (غابات الصنوبر والبلوط) ومناجم الحديد. في الأندلس: تركزت في **إشبيلية**)على نهر الوادي الكبير)، و**ألمرية**، و**طرطوشة** .وفي بلاد المغرب: برزت موانئ **بجاية**، و**تونس**، و**سبتة**، و**سلا**.
- **الترابط الصناعي :**كانت صناعة السفن "صناعة تجميعية (Assembly Industry)" بامتياز؛ فهي تتطلب نجارين مهرة لتشكيل الألواح، وحدادين لصناعة المسامير والمراسي، ونساجين لصناعة الأشرعة (من الكتان)، وصناع حبال (من الحلفاء).
- **النص المصدر :**يوضح العلامة **ابن خلدون** البعد الاستراتيجي والسيادي لإنشاء هذه المصانع البحرية، وكيف ورث الموحدون قوة الأندلس البحرية ليصبحوا سادة المتوسط:

"واتخذوا [أي خلفاء الأندلس] دار الصناعة لإصلاح الأساطيل... فلما استبد الموحدون بملك المغرب والأندلس... كان أسطولهم قد بلغ في الكثرة والاستجادة مبلغاً لم يبلغه أسطول قط في الإسلام... وكانت قيادتهم البحرية تتحكم في الروم [البيزنطيين والأوروبيين] وتُرهبهم" (1).

2.الصناعات الحربية (السلاح والعتاد):

استفاد الغرب الإسلامي من غنى أرضه بالمعادن (كما رأينا في المحاضرة السابقة) لتأسيس صناعة حربية متفوقة تكنولوجياً، تُلبي احتياجات "الجهاد" والدفاع عن الثغور.

- **فولاذ طليطلة :(Toledo Steel)** تربعت مدينة "طليطلة" على عرش الصناعات الحربية عالمياً. لم يكن السر في وفرة الحديد فحسب، بل في "الكيمياء التطبيقية"؛ حيث أتقن الحدادون الأندلسيون تقنية "السقي (Tempering) "باستخدام مياه نهر التاجه ذات الخصائص المعدنية المحددة، مما أعطى السيوف الطليطلية صلابة ومرونة أسطورية جعلتها مضرباً للمثل في أوروبا.
  - **النص المصدر :**يذكر الجغرافي **ابن سعيد المغربي** متحدثاً عن التفوق التكنولوجي لطليطلة:

"وطليطلة هي دار الصناعات... وسيوفها لا تُجارى في حدتها وقطعها، لها سقيٌ عجيب لا يوجد في غيرها من البلاد، تُقطع بها الدروع فلا تنثني" (2).

- **الصناعة الحربية المغاربية (الدَّرَق اللمتوني :(**في المغرب، اشتهرت صناعة الدروع والتروس، وأهمها "الدرق اللمتوني" المصنوع من جلود اللمط (حيوان صحراوي يشبه المها) والذي كان يصد ضربات السيوف، واعتمدت عليه جيوش المرابطين بكثافة.

3.صناعة الورق "الكاغد" (الصناعة المعرفية ونقل التكنولوجيا):

إذا كان السيف أداة القوة الخشنة، فإن "الورق" كان أداة القوة الناعمة التي نقلت الغرب الإسلامي وأوروبا لاحقاً إلى عصور التنوير.

- **نقل التكنولوجيا :(Technology Transfer)** المسلمون هم من نقلوا سر صناعة الورق من الصين، وطوروه في بغداد، ثم نقلوه إلى الأندلس في عهد الخليفة الحكم المستنصر، لتنتهي سيطرة "الرقوق الجلدية (Parchment) " الباهظة الثمن.
- **شاطبة - (Xàtiva) عاصمة الورق الأوروبية :**استقرت هذه الصناعة الكيميائية الدقيقة في مدينة "شاطبة" بشرق الأندلس، مستفيدة من وفرة المياه لتدوير "طواحين الورق(Paper Mills) "، ووفرة الكتان (المادة الخام للعجينة). أصبحت شاطبة تُصدر الورق الفاخر إلى كل أوروبا والمشرق.
  - **النص المصدر :**يوثق الشريف **الإدريسي** هذه الريادة التكنولوجية العالمية بكلام قاطع:

"وبشاطبة يُصنع الكاغد [الورق] الذي لا يوجد له نظير في المعمور، ومنها يُجلب إلى الشرق والغرب" (3.(

- **الورق في المغرب (فاس :(**مع بداية التراجع الأندلسي، نُقلت تكنولوجيا صناعة الورق بقوة إلى مدينة "فاس" في العصر الموحدي والمريني، حيث أُقيمت عشرات طواحين الورق على "وادي فاس"، مما أدى إلى ثورة في نسخ الكتب وازدهار المكتبات المغاربية (4.(

4.الخلاصة التحليلية :

يجب أن نستنتج هنا أن الصناعات الاستراتيجية في الغرب الإسلامي جسدت قدرة الدولة الفائقة على **"التعبئة المادية** ."فلم يكن بإمكان القطاع الخاص (التجار الحرفيين) تحمل التكلفة الباهظة لإنشاء أحواض بناء السفن أو استيراد التكنولوجيا الكيميائية

لصناعة الورق المعقدة. لقد قادت الدولة هذه الاستثمارات (State-led investments) لتأمين استقلالها السياسي، وتحويل المعرفة المكتوبة إلى أداة للهيمنة الثقافية والإدارية، ممهدةً بذلك الطريق للنهضة الأوروبية التي اعتمدت لاحقاً على أسطرلاب الأندلس، وفولاذ طليطلة، وورق شاطبة.

الهوامش :

(1) عبد الرحمن بن خلدون، *المقدمة*، تحقيق عبد السلام الشدادي، ج 2 (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم والآداب، 2005)، 45.

(2) علي بن موسى بن سعيد المغربي، *المُغرب في حُلى المَغرب*، تحقيق شوقي ضيف، ج 2 (القاهرة: دار المعارف، 1955)، 15.

(3) الشريف الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ج 2 (بيروت: عالم الكتب، 1989)، 557.

(4) إفاريست ليفي بروفنسال، *تاريخ إسبانيا الإسلامية: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية*، ترجمة علي عبد الرؤوف وعلي محمد سالم، ط 3، ج 3 (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000)، 230-234.

المحور الثالث: الصناعات الجلدية، الخزفية، والغذائية (من الاستهلاك المحلي إلى العلامة التجارية العالمية)

لم يقتصر التفوق الصناعي في الغرب الإسلامي على القطاعات الاستراتيجية والنسيجية، بل امتد ليشمل صناعات تحويلية دقيقة نجحت في دمج "المهارة الحرفية" بـ "الموارد المحلية". وقد بلغت هذه الصناعات مستوى من الجودة جعلها تحتكر الأسواق المتوسطية، وتفرض أسماء مدن إنتاجها كـ "علامات تجارية (Brands) "في قواميس التجارة العالمية.

1.الصناعات الجلدية (الهيمنة على الأسواق الأوروبية):

نظراً لازدهار التنمية الحيوانية والرعوية (خاصة في بلاد المغرب)، توفرت المادة الخام (الجلود) بكثرة. غير أن السر لم يكن في الجلود بحد ذاتها، بل في **"كيمياء الدباغة** (Tanning) "باستخدام مواد نباتية محلية كـ "عفص البلوط" وقشور الرمان، مما أكسَب الجلود نعومة فائقة وألواناً زاهية لا تبهت.

- **الجلد القرطبي :(Cordovan Leather)** تخصصت مدينة قرطبة في دباغة جلود الماعز والخيول بمهارة منقطعة النظير. واستُخدمت هذه الجلود في صناعة الأحذية الفاخرة، والسروج، والدروع الجلدية.
  - **الأثر اللغوي الاقتصادي :**من شدة ارتباط هذه الجودة بمدينة قرطبة، اشتُقت كلمة صانع الأحذية الفاخرة باللغة الإنجليزية القديمة والفرنسية من اسم المدينة.(Cordwainer / Cordonnier)
- **الجلد المراكشي :(Morocco Leather)** انتقلت ريادة الدباغة الفاخرة لاحقاً إلى مدن المغرب (خاصة مراكش وفاس). وعُرف "الجلد المراكشي" عالمياً بمرونته وقدرته على تحمل النقش المذهب، فاحتكر صناعة "تجليد الكتب الفاخرة (Bookbinding) "في المكتبات الأوروبية لقرون طويلة.

2.صناعة الخزف ذي البريق المعدني:(Lusterware)

تمثل هذه الصناعة "القمة التكنولوجية والفنية" للحرفيين المسلمين. فقد ابتكر الخزافون تقنية كيميائية معقدة لإعطاء الأواني الطينية بريقاً معدنياً (ذهبياً أو فضياً) بعد شيّها في أفران ذات درجات حرارة متحكم بها بدقة.

- **الخلفية السوسيولوجية :**يُرجع بعض الباحثين ابتكار هذه التقنية إلى الرغبة في التحايل على التحريم الفقهي للأكل والشرب في أواني الذهب والفضة الخالصة، فكان "الخزف المذهب" هو البديل الفاخر لقصور السلاطين والأثرياء.

- **ملقة (عاصمة الخزف الذهبي :(**تربعت مدينة "ملقة (Málaga) "الأندلسية على عرش هذه الصناعة، وكانت تُصدر أوانيها المذهبة إلى قصور ملوك أوروبا، ومصر، بل وحتى الهند.
  - **النص المصدر :**يذكر الرحالة **ابن بطوطة** هذه الصناعة بإعجاب شديد، مؤكداً وصولها إلى أقاصي العالم الإسلامي:

"وبملقة تُصنع الفخار المذهب العجيب، ويُجلب منها إلى أقاصي البلاد" (1) .كما انتشرت هذه الصناعة لاحقاً في مدن أندلسية أخرى مثل "پاتيرنا (Paterna) " و"مانيسيس" بالقرب من بلنسية.

.3الصناعات الغذائية التحويلية:(Agro-industries)

لم تكن الفلاحة في الغرب الإسلامي تكتفي باستهلاك المحصول الخام، بل ارتبطت بسلسلة من "الصناعات التحويلية" لضمان تخزين الغذاء وتصديره:

- **عصر الزيتون وتكرير الزيوت :**اعتمد الأندلسيون والمغاربة على التكنولوجيا الميكانيكية المتقدمة لاستخراج الزيت (الطواحين المائية والحيوانية). وتركزت معاصر الزيتون بكثافة في "إقليم الشرف (Aljarafe) "بإشبيلية، الذي كان يضم آلاف القرى المتخصصة في إنتاج الزيت وتصديره في جرار فخارية ضخمة إلى الإسكندرية وروما.
- **صناعة السكر :(Sugar Refining)** شكلت صناعة السكر "أعقد الصناعات التحويلية الغذائية". فقد كانت تتطلب زراعة قصب السكر (الذي يحتاج للري الكثيف)، ثم عصره بمعاصر نحاسية عملاقة، ثم غليه في مراجل لتنقيته وتبلوره على شكل "قوالب."

- **التوطين الجغرافي :**ازدهرت هذه الصناعة الثقيلة في "السوس الأقصى" بالمغرب، وفي السواحل الجنوبية للأندلس (وخاصة منطقة ألمرية ومُطريل).
- **التحليل الاقتصادي :**يذكر المؤرخون أن هذه الصناعة كانت تتطلب رؤوس أموال ضخمة لا تتوفر إلا لكبار التجار أو أمراء الدولة، ما يجعلها نموذجاً مبكراً لـ "الاستثمار الزراعي-الصناعي المكثف" (2).

.4الخلاصة التحليلية :

يُثبت نجاح هذه الصناعات التحويلية أن الغرب الإسلامي كان يمتلك بيئة اقتصادية ناضجة تدعم **"الابتكار الحرفي** ."فلم يكتفِ الحرفي الأندلسي والمغاربي بتقليد ما جاء من المشرق، بل طوّر كيمياء دباغة الجلود، وابتكر بريق الخزف المعدني، واستخدم الميكانيكا المائية في المعاصر. هذا التكامل بين "العلم التطبيقي" و"اليد العاملة الماهرة" هو الذي أدى إلى ولادة صناعات تحويلية استطاعت اختراق الحواجز الدينية والجغرافية، لتُزين قصور النبلاء المسيحيين في أوروبا الوسيطة.

الهوامش :

(1)محمد بن عبد الله (ابن بطوطة(، *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، تحقيق عبد الهادي التازي، ج 4 (الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، 1997)، 104.

(2)إبراهيم القادري بوتشيش، *المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الاقتصاد، الذهنيات*)بيروت: دار الطليعة، 1993)، 122-125.

(3)توماس غليك(Thomas Glick) ، *المجتمع الإسلامي والمسيحي في إسبانيا في العصور الوسطى*، ترجمة محمود علي مكي (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2007)، 160-165.

المحور الرابع: التنظيم المؤسساتي والمجالي (طوائف الحرف ونظام الحسبة)

لم يكن التطور الصناعي والحرفي في مدن الغرب الإسلامي (كقرطبة، إشبيلية، فاس، وتلمسان) تطوراً فوضوياً تحكمه الرأسمالية المتوحشة، بل كان مؤطراً بـ "بنية مؤسساتية" دقيقة. أدركت الدولة والمجتمع أن بقاء التفوق التجاري الأندلسي والمغاربي في حوض المتوسط يعتمد كلياً على **"الثقة والجودة** .(Quality Assurance) " ولضمان ذلك، اعتُمدت ثلاث آليات تنظيمية: التنظيم المهني (النقابي)، التنظيم المجالي (العمراني)، والتنظيم الرقابي (الحسبة).

.1طوائف الحرف (التنظيم المهنيGuilds):

كانت كل حرفة تنتظم في هيكل يشبه "النقابات المهنية" يُعرف بـ "الطائفة" أو "الحنطة". لم تكن هذه الطوائف تهدف فقط لتوحيد الأسعار، بل لحماية "أسرار المهنة" والتدرج الهرمي للصناع.

- **الهرمية الحرفية :**يتدرج الحرفي من "مُتعلم/صبي(Apprentice) "، إلى "صانع(Journeyman) "، ليبلغ رتبة "مُعلم (Master) "بعد اجتيازه اختبارات تثبت كفاءته.
- **العريف أو الأمين :**ينتخب أعضاء كل حرفة (أو يُعين القاضي) شيخاً لهم يُسمى "الأمين" (في المغرب) أو "العريف" (في الأندلس). وظيفته الأساسية هي تمثيل الحرفة أمام السلطة، حل النزاعات الداخلية، وضمان عدم التلاعب في المواد الخام.
- **النص المصدر :**يذكر الإمام **ابن عبدون الإشبيلي** في رسالته الشهيرة في الحسبة دور "الأمين" كخبير فني لا يُستغنى عنه، قائلاً:

"ويجب أن يُجعل لكل صناعة عريف من أهلها، خبير بها، ثقة في دينه وأمانته، ليكون واسطة بين المحتسب وبين أرباب تلك الصناعة، يرجع إليه في معرفة غشهم وتدليسهم" .(1)

.2التنظيم المجالي للأسواق:(Spatial Zoning of Crafts)

انعكس هذا التنظيم المهني على طبوغرافية (عمران) المدينة الإسلامية. لم تكن الأسواق مختلطة، بل خضعت لنظام **"الرستقة)** "تخصيص سوق مستقل لكل حرفة)، وفق تخطيط هرمي ينطلق من "المسجد الجامع" نحو أسوار المدينة:

- **حرف المركز (النظيفة والنفيسة :(**تلتصق بالمسجد الجامع الحرفُ التي لا تصدر ضجيجاً أو تلوثاً، والتي تتطلب أماناً عالياً (سوق الشماعين، الوراقين، العطارين، وتجار القماش والحرير.(
- **حرف الأطراف (الملوثة والمزعجة) :**تُدفع الحرف المزعجة (كالحدادين والنجارين) والمسببة للروائح (كالدباغين وصناع الفخار ومذابح اللحوم) إلى أطراف المدينة أو خارج أسوارها بالقرب من مجاري الأنهار، وهو ما يعكس **"وعياً بيئياً وحضرياً "**مبكراً (2.(

.3الرقابة الصارمة وحماية المستهلك (نظام الحسبة):

تُعد مؤسسة **"الحسبة)** "وضيفتها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأسواق) بمثابة "جهاز الشرطة الاقتصادية وحماية المستهلك."

- **المحتسب :**هو قاضٍ يمتلك سلطة تنفيذية فورية .(Summary Jurisdiction) يطوف بالأسواق للتأكد من دقة الموازين والمكاييل، ويمنع الاحتكار (Monopoly)في السلع الأساسية، ويفحص جودة المنتجات.
- **قمع الغش التجاري :**حفلت كتب الحسبة الأندلسية والمغاربية بتفاصيل دقيقة ومذهلة عن حيل الصناع في غش السلع، وكيفية تصدي المحتسب لها لضمان تنافسية الصادرات.

- **النص المصدر :**يقدم **السقطي الأندلسي**)في كتابه عن آداب الحسبة بمدينة ملقة) تعليمات صارمة للمحتسب في مراقبة "صناع الأحذية" (الأساكفة)، مما يدل على دقة الرقابة الصناعية:

"ويُمنع الأساكفة من خياطة النعال بالخيوط الكتان البالية، بل يخيطونها بالخيوط المتينة... ويُمنعون من حشو باطن النعال بالجلود الفاسدة التي تذوب إذا أصابها الماء... ومن فعل ذلك ضُرب وشُهّر به في السوق" (3).

خامساً: الخاتمة العامة للمحاضرة(Synthesis & Conclusion)

ختاماً لهذه المحاضرة، يمكننا التأكيد على أن الغرب الإسلامي في العصر الوسيط لم يكن مجرد "اقتصاد زراعي-استخراجي"، بل أسس لـ **"رأسمالية حضرية وإنتاجية " (Urban Capitalism)**متطورة.

من خلال تتبعنا للخريطة الحرفية والصناعية، يتضح لنا أن الأندلس والمغرب نجحا في خلق "قيمة مضافة" هائلة. فدودة القز تحولت إلى أقمشة ديباج تُزين قصور ملوك أوروبا، وجلود الماعز تحولت إلى تجليد فاخر يُعرف بـ(Morocco Leather) ، والكتان البالي تحول في شاطبة وفاس إلى "ورق" كسر احتكار الكنيسة للمعرفة وأسس لنهضة علمية عالمية.

إن هذا التفوق الصناعي والتكنولوجي لم يأتِ من فراغ، بل كان مدعوماً بـ "بنية مؤسساتية" عبقرية. فتكامل "طوائف الحرف" التي تورث المهنة وتحمي أسرارها، مع مؤسسة "الحسبة" التي تقمع الغش وتحمي المستهلك، هو الذي خلق **"العلامة التجارية الموثوقة (Reliable Brand) "**للسلع الأندلسية والمغاربية في موانئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي.

إن فهمنا لمدى تطور هذا القطاع الحرفي، ومدى قدرته على استيعاب اليد العاملة الكثيفة، هو الذي سيفسر لنا في محاضرتنا القادمة كيف تشكلت طبقة "التجار الكبار"

(البرجوازية التجارية)، وكيف نشطت المبادلات الاقتصادية والمسالك التجارية التي ربطت الغرب الإسلامي بأطراف العالم المأهول.

الهوامش والتوثيق :

(1)محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي الإشبيلي، *رسالة في القضاء والحسبة*، نشرها إفاريست ليفي بروفنسال ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب" (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955)، 45.

(2)بيدرو تشالميتا(Pedro Chalmeta) ، *السيد في السوق: دراسة في التنظيم الاقتصادي والمكاني للمدينة الإسلامية*، ترجمة إبراهيم شبوح (تونس: الدار التونسية للنشر، 1999)، 210-215.

(3)أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي الأندلسي، *في آداب الحسبة*، تحقيق كولان وليفي بروفنسال (باريس: إرنست ليرو، 1931)، 58.

(4)إبراهيم القادري بوتشيش، *المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الاقتصاد، الذهنيات* (بيروت: دار الطليعة، 1993)، 130-135.